استراتيجيَّةُ الإسلامِ في بناءِ السِّلمِ العالميِّ
وواجبُ رجالِ الدِّينِ في محاربةِ العُنفِ والإرهابِ

عبد الرحمن سوار الذهب(*)

اهتمَّ الإسلامُ بالسَّلامِ باعتباره قيمةً إنسانيَّةً وضروريَّةً لحمايةِ الإنسانِ، ودعا إليه منذُ أربعةَ عشَرَ قرنًا، وهو بذلكَ سبَقَ دعواتِ العالمِ المعاصرةَ، وجعلَه الجوازَ الذي عبْرَهُ يُمسي ويُصبحُ المسلمُ مع أخيه المسلمِ وغيرِه من أبناءِ البشرِ في أمنٍ وأمانٍ.

عندَما يدعو الإسلامُ إلى السَّلامِ؛ يؤكِّدُ أنَّه يُضفي مزيدًا من الاطمئنانِ والسَّكينةِ على أتباعِ رسالتِه الإنسانيَّةِ، ثم على بقيَّةِ البشرِ من غيرِ أتباعِه الذينَ يرغبونَ العَيشَ في سلامٍ.

وقد بدأَ الإسلامُ في تحقيقِ السَّلامِ أوَّلًا بين أتباعِه؛ فأشاعَ وأوجبَ بينهمُ الإخاءَ في الإسلامِ وأكَّدَ ذلكَ بآياتٍ تُتلى في القُرآنِ : "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ" [الحجرات: ١٠]، فأصبحَت فريضةً على المسلمِ لمؤاخاةِ إخوتِه المسلمينَ.

وعند وصول النبيِّ صلى الله عليه وسلم المدينةَ المنورةَ؛ آخى بينَ المهاجرينَ والأنصارِ بتلكَ القاعدةِ الإنسانيَّةِ السَّاميةِ، يَبني الإسلامُ مجتمعًا خاليًا من كلِّ سلوكِ عُنفٍ أو إرهابٍ ولا يتفاضلُ المسلمونَ في مجتمَعِهم فيما بينَهم إلَّا بالتَّقوى والعملِ الصَّالحِ.

ثمَّ إنَّ الإسلامَ يُحافِظُ على حُرمةِ الجِنسِ البَشريِّ وضَرورةِ المساواةِ، فقد جاءَ القُرآنُ الكَريمُ مُتحدِّثًا عن تكريمِ بني آدمَ- كبشَرٍ- دونَ أن يكونَ له أيُّ مُخصصاتٍ أخرى، قالَ تعالى: "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا(70) " [الإسراء: ٧٠].

وقد قرَّرَ الإسلامُ المساواةَ بينَ بني البَشرِ، دونَ أدنى تفرقةٍ بين عُنصرٍ وعُنصرٍ، وطبَّقها فعلًا أمامَ قانونِ الشَّرعِ وأحكامِ الإسلامِ، فالحلالُ حلالٌ للجميعِ، والحرامُ حرامٌ على الجميعِ.

ونتيجةً لتطبيقِ هذا المبدأِ؛ أَصبحَ غيرُ المسلمينَ يعيشونَ في ديارِ المسلمينَ دونَ أن يفقِدوا أيَّ حقٍّ مشروعٍ، ولنَذكُر هنا أنَّ اليهودَ حينَ فرُّوا بدينِهم مِن البلادِ الأوروبيَّةِ في القُرونِ الوسطى؛ لم يجِدوا مكانًا آمنًا على أرواحِهم إلَّا في بلادِ المسلمينَ، في الأندلسِ وشمالِ أفريقيا ذاتِ البلادِ المسلمةِ.

ومنَ المبادِئِ الإسلاميَّةِ لتعزيزِ السِّلمِ الإنسانيِّ يؤكِّدُ الإسلامُ على حُريَّةِ الاعتقادِ بالنُّصوصِ القرآنيَّةِ : "وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ" [الكهف: ٢٩]، وبذلكَ يُطلقُ الإسلامُ للفِكرِ العِنانَ، وبذلكَ تكونُ حريَّةُ الاعتقادِ بحيثُ يعتقِدُ الإنسانُ بما يقتنِعُ به، ولعلَّ هذِه النَّظرةَ التَّسامحيَّةَ النَّابعةَ من صَميمِ العَقيدةِ الإسلاميَّةِ - هيَ التي تُشيعُ السَّلامَ بين الفِرَقِ والمذاهبِ المختلِفةِ، فلا يُقاتَلُ أحدٌ بحجَّةِ معتَقَدِه.

وحرصًا مِن الإسلامِ على أن تسيرَ الحياةُ سَلِسةً بينَ الأقليَّاتِ غيرِ المسلمةِ؛ فقد جاءَ في تشريعاتِه المحكَمةِ ضرورةُ إزالةِ الحواجزِ معهم.
يقولُ اللهُ تعالى عن أهلِ الكتابِ : "الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ۖ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ" [المائدة: ٥].
وآيةٌ أُخرى: "وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ" [العنكبوت: ٤٦].
ومن الشَّواهدِ التَّاريخيَّةِ أنَّ الإسلامَ كانَ -ولا يزالُ- ودودًا مع المسيحيينَ ومعَ اليهودِ، وكانَ خطابُ النبيِّ محمدٍ صلى الله عليه وسلم أقربَ إليهم وإلى مُعتقداتِهم، ولم تكُن دعوةُ الإسلامِ متناقضةً مع الإيمانِ باللَّهِ عندَ أهلِ الكتابِ؛ بل كانت مُكَمِّلةً له، والدِّياناتُ السَّماويَّةُ جميعُها عقائدُ متقاربةٌ متفاهِمةٌ .
وتتجلَّى السَّماحةُ الإسلاميَّةُ في معاملةِ الرَّسولِ صلى اللَّه عليه وسلم لأهلِ الكتابِ، يهودًا كانوا أو نَصارَى، فقد كانَ يزورُهم ويُكرمُهم ويُحسنُ إليهم، ويَعودُ مرضَاهم، ويأخذُ منهم ويُعطيهم.
وهناكَ من الشَّواهدِ الكثيرةِ في التَّاريخِ الإسلاميِّ ما يشهدُ بحسنِ مُعامَلةِ الدَّولةِ المسلمةِ للأقليَّات غيرِ المسلمة، وأنَّ تطبيقَ مبدأِ حريَّةِ المعتَقَدِ الذي اعتُمد منذُ عصورٍ يبدو شديدَ الفعاليَّةِ في هذا المجالِ؛ لأنَّه يمنعُ كلَّ أنواعِ الإكراهِ لا سيَّما التَّحولُ للإسلامِ تحتَ ضغطِ العُنفِ والقُوةِ؛ بل رفعَ الظُّلمَ عنهم وحافظَ عليهم.
يظنُّ النَّاسُ أن التَّمسُّكَ بالإسلامِ وجَعْلَه أساسًا لنظام حياةٍ؛ يُنافي وجودَ أقليَّاتٍ غيرِ مسلمةٍ في الأمَّةِ المسلمةِ، وينافي الوَحدةَ بينَ عناصرِ الأمَّةِ، وهي دعامةٌ مُهمَّةٌ من دعائمِ النُّهوضِ في هذا العصرِ، ولكنَّ الحقَّ غيرُ ذلك، فإنَّ الإسلامَ احتاطَ لتلكَ الحِقبةِ؛ فلم يَصدُر دستورُه إلا واشتمَلَ على النَّصِّ الصَّريحِ الواضحِ الذي لا يحتملُ لبسًا ولا غموضًا في حمايَةِ الأقليَّات، قال تعالى:
"لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ" [الممتحنة: ٨]، فهذا النَّصُّ لا يشتَمِلُ على الحِمايةِ فقط؛ بل أوصى بالبرِّ والإحسَانِ.
والقرآنُ الكريمُ يأمرُ الابنَ المسلمَ بمصاحبةِ الوالدَينِ المشركَينِ بإحسانٍ؛ بل يدعو الإسلامُ إلى الإنفاقِ على الأقرباءِ والجيرانِ من غير المسلمينَ؛ لأن الهُدى هُدى اللهِ، وأنَّ الإنسانيَّةَ رابطةٌ واحدةٌ، وتكريمٌ لابنِ آدمَ بوصفِه إنسانًا.
إنَّ منهجَ الإسلامِ ومبادئَه القويمةَ تُركِّزُ على الأُخوَّةِ الإسلامية والتعاملِ الرَّاقي بين المسلمين وأهلِ الدِّيَانات والمِلَلِ الأخرى، بحيثُ ينتفي معها وجودُ أيِّ ثَغرةٍ يمكنُ أن تَنفُذَ من خلالِها ظواهرُ تدعو للعُنفِ والإرهابِ.
ومِن هنا نخلُصُ إلى النَّتائجِ الآتيةِ:
١- الإسلامُ دينٌ يدعو إلى السَّلامِ وَفقَ منهجٍ ومبادئَ واضحةٍ.

٢- نصوصُ القرآنِ الكريمِ تؤكِّدُ ضرورةَ التَّواصلِ السِّلميِّ مع غيرِ المسلمينَ.
٣- شَهِدت دولةُ الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم تواصلًا مع غيرِ المسلمينَ.
٤- الغُلوُّ والتَّطرُّفُ وما نُشاهدُه مِن مُعاداةِ غيرِ المسلمينَ لا يمثِّل الإسلامَ في شيءٍ.
٥- هناكَ كثيرٌ مِن الشَّواهدِ على إنسانيَّةِ الإسلامِ وحُسنِ معاملتِه مع أهلِ الكِتابِ.
وعلى رجالِ الدِّينِ بيانُ أنَّ الإسلامَ دينُ سلامٍ، وتوعيةُ المسلمينَ بأنَّ سلوكَ المتطرِّفينَ لا يُعبِّرُ عن الإسلامِ، وعكسُ الوجهِ الحضاريِّ للإسلامِ وتعايشِه مع غيرِ المسلمينَ عبرَ امتدادِ الحضارةِ الإسلاميَّة، ولا بُدَّ من تضافرِ رجالِ الدِّينِ لإرساءِ دعائمِ السَّلامِ، والتَّعاونِ على عَقدِ مؤتمراتِ الحوارِ بينَ الأديانِ، وتفعيلِ المنابرِ العالميَّةِ لإرساءِ دعائمِ السَّلامِ ليعيشَ الجميعُ في أمانٍ ومحبةٍ.
***